

## بنية الملفوظ الحجاجي لحديث أم زرع *Structure of the pilgrim speech of hadith om zaare*

د/ شميسة خلوي \*

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2019/07/20 | تاريخ القبول: 2019-06-23 | تاريخ الإرسال: 2019/05/18 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

الملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نبرز الوظائف الحجاجية التي حفل بها حديث أم زرع، وحين البحث في عناصر سياق الحديث ألفينا الجوانب الحجاجية قد برزت من خلال الآليات اللغوية والبلاغية.

فكيف استطاعت كل زوجة من النسوة اللواتي اجتمعن أن تقنع الأخريات بحسن عشرة زوجها لها أو بمقابحه معها من خلال الملفوظات الحجاجية؟ وكيف كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابا إقناعيا؟

وعلى هذا، فإننا نسعى للخروج بقراءة معاصرة للخطاب النبوي مجسدا في أحد أشهر الأحاديث النبوية التي ترمي إلى إيضاح الخصال الحسنة التي ينبغي أن يكون عليها الزوج تجاه زوجته.

الكلمات المفتاحية: حديث أم زرع، الحجاج، الخطاب.

### Abstract:

We try through the present research paper to show the argumentation functions that the speech of Oum Zaraa is holding, and when searching for the speech context elements, we have found that the argumentation aspects had appeared through the eloquence and linguistic mechanisms.

So how each spouse of the women who were together has been able to convince the other ones to be well treated or mistreated by her husband

\* جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله choumayssa.khaloui@hotmail.fr

through the argumentation utterances? And how was the speech of the prophet Mohamed peace be upon him a convincing speech?

Consequently, we seek to reach a contemporary reading of the prophet Mohamed speech incarnated in one of the most famous prophetic sayings that aim to clarify the good character that should have a husband towards his wife.

\*\*\* \*\*

أحمد الله على جزيل نعمائه وأشكره شكر المعترف بمنه وآلائه وأصلي وأسلم على صفوة أنبيائه وعلى آله وصحبه وبعد:

بين الانفلات من قيود الماضي والجري وراء المناهج النقدية الحديثة نجد مساحة تجمع بين الخطاب التراثي ومختلف الأدوات الإجرائية الحديثة، حيث يخضع الخطاب إلى مقارنة حدائثة واعية تمكّن الباحث من الولوج إلى خبايا النص والكشف عن جمالياته، لا سيما إن كان النص أصيلا على شاكلة الأحاديث النبوية، باعتبارها ميدانا خصبا للعملية التأويلية.

وإن اختيارنا لحديث أم زرع كانت له أسبابه ومبرراته، أولها يتعلّق بتطبيق المفاهيم الحجاجية والتداولية على لغتنا العربية وبخاصة النص الديني، من باب استثمار الحدائثة في قراءة تراثنا العربي الإسلامي، إذا وافق الإجراء المدوّنة، والمطلع على حديث أم زرع يدرك ما له من أوجه حجاجية، باعتباره خطابا تواصليا، وقد تمّت هذه العملية من خلال استراتيجيات هدفها الإقناع.

كما أن لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم موضعا من نفسي، كيف لا وقد أوتي حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم محابّ القلوب، ولعل هذه المقاربة -كمثلاثتها- يهز لها كل باحث مهتم عطفه ويتلقى أحاديث نبينا فيحسن صلتها بأدوات إجرائية حدائثة، وهذا هو المبتغى.

ناهيك عن محاولة الاشتغال على مدونة نسائية، وقد أهمل المشتغلون بالنقد والمقاربات الحدائثة هذا النوع من النصوص، مقارنة بنظيراتها الذكورية، وفي حديث أم زرع بما تضمنه من أحاديث نسوية تتمثّل البلاغة في كل فقرة من فقره، حتى أدرجه طيفور ضمن بلاغات النساء في مدح الأزواج وذمهم<sup>(1)</sup>.

وعلاوة على ذلك فإن هذا النص يعتبر من النصوص التي يرتاح لها بال الباحث لورودها ضمن حديث نبوي صحيح، ومعلوم ما لهذا النوع من النصوص الدينية من مصداقية لا يختلف فيها.

أولاً: نص حديث أم زرع<sup>(2)</sup>:

«حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن، وعلي بن حجر، قالوا: أخبرنا عيسى بن يونس، حدثنا هشام بن عروة، عن عبد الله بن عروة، عن عروة، عن عائشة، قالت: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقِدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَحْبَابِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا. قَالَتِ الْأُولَى: زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٌ غَبِيٌّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ: لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ. قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبْتُ خَبْرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذْكَرُهُ، إِنْ أَذْكَرُهُ أَذْكَرُ عَجْرَهُ وَبُجْرَهُ<sup>(3)</sup>.

قَالَتِ الثَّلَاثَةُ: زَوْجِي الْعَشْتَقُ<sup>(4)</sup>، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقَ وَإِنْ أَسْكُتَ أَعْلَقَ. قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلِيلُ نَهَامَةٍ، لَا حَرْوٌ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةٌ وَلَا سَامَةٌ. قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فِهْدٌ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدٌ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عِنْدَ. قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفٌّ<sup>(5)</sup>، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ<sup>(6)</sup>، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ، وَلَا يُوَلِّجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ. قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ<sup>(7)</sup> -أَوْ غَيَايَاءُ- طَبَاقَاءُ<sup>(8)</sup>، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَكٌ أَوْ فَلَكٌ<sup>(9)</sup> أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكَ.

قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمُسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْنَبٍ<sup>(10)</sup>. قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي زَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ.

قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمَزْهَرِ، أَيْقَنَ أَنَّهُنَّ هَوَالِكٌ. قَالَتِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ، أَنَاسَ مِنْ حُلِيِّ أَدْنَى، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَحَنِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةِ بِشَقٍ<sup>(11)</sup>، فَجَعَلَنِي فِي

أَهْلٍ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ<sup>(12)</sup>، وَذَائِسٍ<sup>(13)</sup> وَمُنَقٍّ<sup>(14)</sup>، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَأَزْقُدُ فَاتَّصَحَّحُ، وَأَشْرَبُ فَاتَّقَنَّحُ<sup>(15)</sup>، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، عُكُومُهَا<sup>(16)</sup> رَدَاحٌ<sup>(17)</sup>، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، مَضْجَعُهُ كَمَسَلٍ شَطْبَةٍ<sup>(18)</sup>، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفَرَةِ<sup>(19)</sup>، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلَا تَنْقُثُ<sup>(20)</sup> مِيرَتَنَا<sup>(21)</sup> تَنْقِيثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا، قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ<sup>(22)</sup>، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ حَصْرِهَا بِرُمَانَتَيْنِ، فَطَلَقْنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا<sup>(23)</sup>، رَكِبَ سَرِيًّا<sup>(24)</sup>، وَأَخَذَ حَظِيًّا<sup>(25)</sup>، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ<sup>(26)</sup> زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلُكَ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ.

قَالَتْ غَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ».

ثانيا: شرح حديث أم زرع:

لقد تكلم في تفسير وشرح حديث أم زرع جملة من العلماء من أصحاب الصنعة الحديثية، ومن أصحاب اللغة المتقدمين منهم والمتأخرين أيضا<sup>(27)</sup>، وفيما يلي المعاني العامة لأحاديث النسوة في مدح وذم أزواجهن على وجه الاختصار:

قول الزوجة الأولى: وصفت زوجها بالبخل وقلة الخير والتكبر.

قول الزوجة الثانية: أحجمت عن ذكر ما استر من قبائح زوجها، واكتفت بالإجمال دون الشرح خشية الاسترسال بذكر عيب بعد عيب.

قول الزوجة الثالثة: استهلّت كلامها بمدح زوجها واصفة إياه بالطول، إلا أن طولها بلا نفع، فهي معه كمن هو على حد السنان، إن هي ذكرت معايبه فارقها وإن هي سكنت تركها معلقة.

قول الزوجة الرابعة: وصفت خُلّها باعتدال الحال، فلا هو سئمها ولا استثقل صُحبته.

قول الزوجة الخامسة: نعتت زوجها بأنه كريم الطبع متغافل، لا يسأل ويتفقد ما ترك.

قول الزوجة السادسة: ذمّت زوجها لأنه قليل الاشتغال بها إذ لا يدنو منها فلا يعلم بذلك محبتها له.

قول الزوجة السابعة: وصفت زوجها بالتناهي في جميع النقائص والعيوب فهو سيئ العشرة عاجز عن حاجتها عنيف معها.

قول الزوجة الثامنة: وسمت زوجها بـ«بلين الجانب وحسن الخلق والعشرة مع طيب ثنائها عليها وطيب رائحة جسده».

قول الزوجة التاسعة: وصفت زوجها بشرف نسبه وجلالة مكانته وامتداد قامته وقرينه للضيوف.

قول الزوجة العاشرة: ذكرت زوجها بالكرم، بحيث تترع يده بالجلود على الضيوف. قول الزوجة الحادية عشرة: تلك هي أم زرع التي سمي الحديث باسمها، وقد أخبرت صويحيباتها بحسن عشرة زوجها لها، وكيف أصلح معيشتها، وذكرت حال أبي زرع وابنه وابنته وجارته، ثم زواجه من غيرها وتطليقه لها.

إن الملاحظة العامة لمعاني كلام النسوة هي كون بعضهن أشدن بذكر أزواجهن ونشرن طراز محاسنهم أمام الصويحيبات، وأخريات عيّن أزواجهن وبسطن مساوئهم ومقابحهم.

وليس علينا أن نستغرب مما نجده من صعوبة في فهم بعض الألفاظ، فلا مشقة ولا عناء في فهم معانيها بين النسوة، ف«كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجابة فكر ولا استعانة»<sup>(28)</sup>.

وفي هذا الحديث من الفقه الكثير، كحسن عشرة الرجل مع أهله وتأييدهن واستحباب محادثتهن بما لا إثم فيه تسلية للنفس وجلاء للقلب، وجواز إخبار الرجل زوجته وأهله بصورة حاله معهم، وفيه أيضا جواز الحديث عن الأمم الخالية وضرب الأمثال بهم لأن في سيرهم اعتبارا للمعتبر.

### ثالثا: الحجاج:

إن أساس الحجاج في اللغة هو الحجة التي يدلي بها الباحث مقنعا المتلقي، وعليه فالحجاج (Argumentation/ Argue) هو «الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة»<sup>(29)</sup>. وقد ارتبط منذ قرون خلت بمجالات مختلفة كالمناطق والبلاغة وفن الحوار، إلى أن أصبح في العقود الأخيرة أحد أهم الحقول المعرفية.

وإن استعمال اللغة بين المتكلم/ الباحث والسامع/ المتلقي يحدث عملية تواصلية ذات هدف معين، وتأسيسا على هذا فإن خط البحث يتجه نحو ايجاد الملفوظات الحجاجية في حديث أم زرع.

### رابعا: الدراسة (التطبيق):

سنقسّم هذه الورقة البحثية إلى مبحثين رئيسيين هما:

✓ آليات الحجاج البلاغية

✓ آليات الحجاج اللغوية

1. آليات الحجاج البلاغية: سنتناول في هذا الجانب التطبيقي آليات الحجاج البلاغية والمتمثلة في: المقام، التشبيه والاستعارة، الكناية، الإيجاز، التضاد، التجانس، التكرار، التوكيد، الشرط، النفي.

أ.المقام: يعتمد بناء الخطابات على المقام بشكل كبير ولا سيما ونحن نتحدث عن آليات إحداث الإقناع عند المتلقي وذلك بتحديد مراتب القول وما يلزمها من آليات حجاجية وفق الفئة المتلقية للخطاب، وهذا التأثير المرغوب فيه من طرف الباحث لا بد له من فهم لطبيعة المتلقي مع تفاوت درجات الإدراك والطباع والأحوال أيضا.

وإن (المقام) جزء من تعاطي الدرس الحجاجي، نظرا لما يصاحب النص من عناصر مقامية، وما يؤديه المقام من دور في نجاح الخطاب الإقناعي، وهو قبل ذلك النواة المركزية لنظرية السياق وتحديد مع صياغة أيقونة الأنثروبولوجيا الاجتماعية (مالينوفسكي ت:

1942م) Bronislaw Malinowski لمصطلحه (context of situation) أو سياق الحال<sup>(30)</sup>.

وإن هذه الرؤية العامة للمقام ليست بعيدة في معناها المذكور عن الطرح النقدي العربي القديم إذ نستحضر قول العرب: «لكل مقام مقال»<sup>(31)</sup>، كما انطوت صحيفة بشر بن المعتمر (ت: 210هـ) التي تحدّث فيها بشر عن الموهبة والاكتساب والطبع والصنعة عن ضرورة مراعاة مقامات المستمعين إذ قال: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»<sup>(32)</sup>.

وعند النظر في حديث أم زرع نجد ثلاثة أحوال، حال متعلقة بحديث رسول الله صلى الله عليه وحالان متعلقان بحديث النسوة، ونعرض ذلك على التوالي:

- مقتضى حال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن صدور الخطاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا لاعتبارات وجب مراعاتها عند تداول كلامه وهي ما تسمى بـ "مقامات النبي صلى الله عليه وسلم"، وقد عدّ الطاهر بن عاشور (ت: 1973م) مقتضيات أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يصدر عنها قول منه أو فعل اثني عشر حالاً<sup>(33)</sup>، وهي: التشريع، والفتوى، والقضاء، والإمارة، والهدي، والصلح، والإشارة على المستشير، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرّد عن الإرشاد.

يقول صلى الله عليه وسلم في نهاية حديث أم زرع: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لَأُمِّ زَرْعٍ» ونعتقد أن المقام هنا مقام هدي وإرشاد، لأنه من صفات هذا المقام «الإرشاد إلى مكارم الأخلاق وآداب الصحبة»<sup>(34)</sup>، وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيه من الإشارة إلى الأزواج الكثير، فهو يحثهم بطريقة غير مباشرة على الاتصاف بصفات أبي زرع، لما لها من أثر طيب في نجاح العلاقة الزوجية.

وقد راعى رسولنا الكريم وقودتنا عليه الصلاة والسلام حال سيدتنا عائشة، فأنسبها بكلامه وطيّب خاطرها مراعاة لكونها زوجة من زوجاته صلى الله عليه وسلم، تسعى

لإرضائه وكسب وده، وكل كلام جميل المعنى يقع في نفسها موقعا طيبا، ومعلوم أن «أساس الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين»<sup>(35)</sup>، فيكون بذلك قد أقنع زوجه بخطاب مختصر مركز موجه.

● مقتضى حال النسوة: إن حديث النسوة انبنى على الوصف، فمن الزوجات من أثنت على زوجها ثناء عريضا، وهناك من بسطت لسانها في زوجها تنعى عليه عيوبه، وفي كلتا الحالتين لا يخرج المدح والذم عن وصف لخلق الزوج... زوجٌ رضي الخلق لئن العريكة، أو زوجٌ سيئ الخلق فجَّ الطبع، وعليه تشابهت أحوال النسوة في الوصف، واختلفت في نوعه، فالمقام هنا تنوع بين مقام المدح ومقام الذم.

ومن مراعاة مقتضى الحال والنسوة قد تعاھدن أن لا يكتمن شيئا يخص أزواجهن، أن يتحدثن عن علاقة أزواجهن بهن، وأحوال عيشهن معهم، ومع اتساع مفهوم المقام «ليشمل جميع الشروط الخارجية المحيطة بعملية إنتاج الخطاب شفويا كان أم مكتوبا»<sup>(36)</sup>، فإن حديثهن كان عن الأكل والشرب والفرش، وكان الحديث عن المعاملة أيضا، وهكذا ساعد تطابق الحال والموقف على الإقناع والاستمالة، إقناع كل زوجة صويحاتها بحسن عشرة زوجها لها، أو عكس ذلك.

ب. التشبيه والاستعارة: معلوم أن المجاز في عمومه هو الخروج عن سنن اللغة المألوفة، والابتعاد عن المعاني السطحية، لخلق نوع من المحاوراة بين النص والمتلقي بحثا عن المعنى المراد وأحيانا عن معنى المعنى.

وإن اللجوء إلى الأوجه البلاغية ولا سيما التشبيه والاستعارة لهو إقناع للعقل وإمتاع للعاطفة وفي هذه الحالة نجد المرسل قد «جمع بين الإقناع والجمال، إنه يقنع بالفكرة أو الرأي من جهة أنه قياس، وهو يتمتع ويضطرب من جهة أنه صورة تزين القول وتؤشيه»<sup>(37)</sup>، وهذا ما وجدناه ماثلا في حديث أم زرع عبر التشبيه والاستعارة.

● التشبيه: إنه لون بياني مقدّم على جميع الألوان البيانية الأخرى، لإخراجه الخفي إلى الجلي، ولقدرته على تقريب المعنى للسامع وتوضيحه، والتشبيه اصطلاحا هو: «ما يقع بين

شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتهما»<sup>(38)</sup>.

ويتمتع أسلوب التشبيه بشحنة حجاجية أكثر منها زينة كلامية، فالمتحدث الذي يستعين بالتشبيه، يحاول إثبات صفة للموصوف، هذا الإثبات هو الحجة التي يقنع بها السامع، وعليه يعمد إلى شيء آخر تتجسد فيه الصفة بشكل أوضح، ثم يعقد المماثلة، فتصير الصفة الأولى المراد إقناع الآخر بها أكثر إيضاحا وبياناً.

ونختار قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ورد في آخر حديث أم زرع، حين وجّه كلامه صلى الله عليه وسلم لزوجته عائشة رضي الله عنها قائلاً: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ».

إن هذا التشبيه من حيث ذكر الأداة مُرسل، ولهذا سبب في قوة الحجة وإيضاحها وتمكنها من نفس السامع، فلو كان التشبيه دون وجود لأداة التشبيه لكان القصد هو التشابه في كل شيء، وكيف يكون هذا وأحد طرفي التشبيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم؟!

يُبد أن الأداة حصرت التشابه بين الطرفين وأقرّت ضمناً بوجود التفاوت بين المشبه والمشبه به، أي بين الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة وأبي زرع من جهة أخرى، فكان بذلك مقدار نصيب المشبه من صفة المشبه به هو حسن العشرة على وجه العموم، مما ترغب فيه النساء، فمقصوده صلى الله عليه وسلم بقوله: (كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ) يعني حسن الصحبة، ودوام المحبة، فهو صلى الله عليه وسلم يداعب في زوجه عاطفتها وعقلها ببسط التشبيه لتمام الإقناع.

ووقع التشبيه أيضاً في أكثر من موضع من حديث النسوة، كقول الزوجة الرابعة: «زَوْجِي كَلِيلِ تَهَامَةٍ» بحيث شبهت المرأة زوجها بليل تهامة، ليل ليس فيه حر ولا برد فهو معتدل الجو، ويطيب ليل ساكني تهامة لتحصنهم بجبالها فلا يخشون مضرة تصيبهم، وكأنها تقول: زوجي حلو الشمائل والطباع لين الجانب جميل العشرة، سعادتني به كسعادة أهل تهامة بليلهم، فأقنعت العقل بتقريب المعنى، وجعلت الوصف فاستبعد الأسماع.

• الاستعارة: تعرف الاستعارة اصطلاحاً بأنها: «نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره»<sup>(39)</sup>، وعلى هذا فإن الاستعارة هي عدول الكلمات من دلالاتها الصريحة إلى دلالاتها السياقية، وما يعيننا في معرض الحديث عن الحجاج وآلياته في حديث أم زرع هو دور الاستعارة الحجاجي، خصوصاً إن أدركنا أن «القول الاستعاري يتمتع بقوة حجاجية عالية إذا ما قورن بالأقوال العادية»<sup>(40)</sup>.

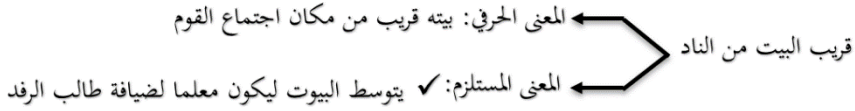
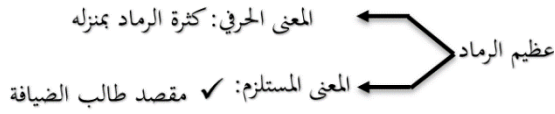
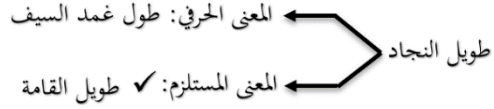
غير أن الآليات الاستعارية في القول الحجاجي لا تنقف عند حدود التمثيل أو المشابهة بين فكرتين أو موضوعين بل قد تحوّل البناء الحجاجي بكامله إلى بناء استعاري يستدعي فيه المعنى الأول معنى ثانياً اعتماداً على المقومات الأساسية في العملية الحجاجية (مقام ومستمتع ومقتضيات تداولية) والتي تشكّل إلى جانب الآليات الأخرى (لسانية، منطقية، تداولية) هيكل الخطاب الحجاجي<sup>(41)</sup>.

ومن ملاحظ ما جاء في حديث أم زرع في هذا الباب قول المرأة الثالثة: «زَوْجِي الْعَشْتَقُ، إِنَّ أَنْطَقَ أَطْلَقَ وَإِنْ أَسْكُتَ أَعْلَقَ»، فقول الزوجة: «إِنْ أَسْكُتَ أَعْلَقَ» هو قول من باب الاستعارة، فالشيء المعلق ليس ثابتاً وهو بين حالين يتأرجح: حال الثبات وحال السقوط، وحالها مع زوجها إن هي سكنت بين استمرار الزواج أو الطلاق، فاستعارت بذلك معنى التعليق الجلي للتعبير عن معنى التعليق الخفي، وهذه الصورة الاستعارية تؤثر في نفس السامع وتفعّل به ما لا تفعّله الحقيقة، وفي المثال المذكور أضحت وسيلة للاستدلال بغية إقرار معنى التذبذب في حياة هذه المرأة مع زوجها، وبالتالي نجحت في ترسيخ المعنى المطلوب في أذهان جلساتها.

ج. الكناية: الكناية في تعريفها الاصطلاحي هي «أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرّح»<sup>(42)</sup>، وهي وسيلة من الوسائل الناجعة في إنجاح عملية التواصل المبني على الحجة لأجل التأثير والإقناع.

ونتمثل الكناية في قول الزوجة التاسعة: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ الْجِدَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ» إذ تعبر كل جملة على كناية، بحيث ذكرت المرأة الرديف

## بنية الملفوظ الحجاجي لحديث أم زرع



وأرادت المردوف، ونُجمل هذه الكنايات في الرسم الموالي، قبل أن نفرد الحديث عن نموذج واحد بغية إيراد ملامحه الحجاجية:

إن مدح هذه المرأة لزوجها كان بأربع عبارات كلها مكنية، أرادت من خلالها أن تذكر كرم زوجها وتمازج خلقه ومكانته بين قومه، ولعلها لو اعتمدت على المفردات للتعبير عن معاني المدح لاحتاجت لسلسلة من الألفاظ وكل لفظ لا يدل إلا على معناه الحرفي. قالت الزوجة -مثلا-: «زَوْجِي طَوِيلُ النَّجَادِ» هي عبارة موجزة، تشير فيها الدلالة المعجمية الأولى إلى طول غمد السيف، لكننا عن طريق الاستدلال العقلي نصل إلى فهم المعنى المستتر والمتمثل في مدح الزوج كونه طويل القامة، فطول الغمد يستلزم طول السيف ومنه طول حامله، فقول المرأة ينم عن كناية لطيفة تحمل بعدا وظيفيا وهو مدح المكى عنه.

إن هذا المنتج الصياغي الكنائي جاءت به الزوجة لإقناع بقية النساء بما أوتي زوجها من بسطة في الجسم، ولو اقتصر على المستوى السطحي للكلام لقالت مثلا: "زوجي

طويل القامة"، ولا يكون هذا مؤثرا على النفس، بينما قولها "زوجي طويل النجاد" فهو أشد وقعاً من التصريح، وهذا هو المطلوب في محاولة إقناع الغير.

وحين استقراء آلية الكناية في حديث الزوجة التاسعة ككل نجده لا يخرج عن مرامي النموذج المختار، بحيث تكمن الطاقة الحجاجية للكناية في تركها للذهن مساحة لإنشاء مجموعة علاقات تؤدي نهاية إلى الإقناع العقلي بما يريد المتكلم إثباته.

د. الايجاز: يعد الايجاز من مباحث علم المعاني عند علماء البلاغة، وهو «تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى»<sup>(43)</sup>، وفي حديث أم زرع نجد الايجاز حاضرا في معظم كلام النسوة، ناهيك عن كلام خير البشر عليه الصلاة والسلام.

- الايجاز في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابه بعد أن استمع لحديث النسوة، فقال مخاطبا عائشة رضي الله عنها: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»، ايجاز مركز جمع فيه من المعاني الكثير، ولا مرأ في كونه صلى الله عليه وسلم أفصح العرب!

لقد تبارى علماء العرب وبلغائهم في وصف فصاحته وبلاغته صلى الله عليه وسلم، فهذا الجاحظ (ت. 255هـ) أمير البيان، يقول عن فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقته في الكلام: «...عابَ التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، (...) وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيَّن حُسْنِ الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته»<sup>(44)</sup>.

فإيجاز العبارة في قوله صلى الله عليه وسلم هو ايجاز في غير عجز، بل قصد إليه قصدا كي يوصل الفكرة بطريقة واضحة سليمة لا تحتاج لشرح وإعمال نظر.

- الايجاز في حديث النسوة: إننا نجد وصف الزوجات لأزواجهن موجزا في عمومته -ماعدا وصف أم زرع- فكان كلاما قليلا مع مدلولات كثيرة، ونمِلُ لذلك بما وصفت به الزوجة السابعة زوجها إذ قالت: «زَوْجِي عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ» عوض الشرح المسهب والتطويل الممل، فبلَّغت المعنى بلفظ يسير بليغ «حتى جعلوا ذلك مثلا للعي القدم، والذي لا يتجه

للحجة»<sup>(45)</sup>، فبعض الكلام دلّ على كلّ، وكفى قليله كثيره فأوصل المعنى بأقل مؤونة مما جعل المتلقي يستوعب المعنى بأقل جهد من المرسل.

هـ. التضاد: إن تناولنا لألوان من البديع في هذه الورقة البحثية ليس القصد منه هو توضيح مواضع هذه الفنون البلاغية بل الهدف المتوخى هو الوقوف على مكانم الحجاج في توظيفها.

إن الفنون البلاغية تحمل في طياتها قوة جمالية تأثيرية في المتلقي علاوة على كونها أداة أسلوبية، ويعد التضاد من فنون البديع التي تستفز المتلقي وتداعب مشاعره من خلال التباين الدلالي الذي تظهره، ويعرف التضاد بأنه «الجمع بين اللفظين الدالين على المعنيين المتضادين حقيقة أو تقريراً»<sup>(46)</sup>، وهو ما سنراه في كلام الزوجة الرابعة: «زَوْجِي كَلِيلٌ تِهَامَةٌ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةٌ وَلَا سَامَةٌ».

إن المطلّع على هذا القول لا شك أنه يلاحظ التضاد الذي حفل به هذا التركيب، فهو مائل بين (حروق) فجمعت المرأة بذلك بين النقيضين ونفثها لينتفي في ذهن المتلقي كون ليل تهامة حار أو قار، فهو ليل معتدل إذن! ويكون بذلك زوجها معتدل المزاج، حسن العشرة معها.

ومعلوم أيضا أن فهم قصد الباحث هو أحد أسباب نجاح الرسالة للمتلقي لا سيما إن كانت تقصد الإقناع، والتضاد يولّد هذه القدرة المعرفية على الفهم ببسطه للمعنى وضده، وقد أدركت المرأة بذكائها الفطري أهمية التضاد وعبرت من خلاله عن عمق تجربتها الحياتية لتبلغها للنسوة، مدحا لزوجها وزهوا بحالها معه، وعليه فإن هذا التصوير الذي عماده التقابل، كان بمثابة الحجة العقلية لاستمالة النسوة ومن ثمة تمكين الغاية الإقناعية والمتمثلة في صفاء عيشها مع زوجها في نفوس المخاطبات.

و. التجنيس: كثيرا ما نجد كلمات تُجانس بعضها في الكلام شعره ونثره، وهذا ما يسمى في علم البلاغة بـ(التجنيس أو الجناس) ويعرف بأنه «إيراد المتكلم كلمتين تجانس كلّ واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها»<sup>(47)</sup>.

ولقد ألفينا هذا الضرب من البلاغة ماثلا في كلام النسوة جميعهن، فكل واحدة حاولت استمالة صويحباتها لكلامها ولنا في قول الزوجة الثالثة مثالا عن حجاجية إيقاع التجنيس، إذ قالت: «زَوْجِي الْعَشْتَقُ، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقَ وَإِنْ أَسْكُتَ أَعْلَقَ» فبين (أَنْطَقَ) و(أَطْلَقَ) و(أَعْلَقَ) جناس ناقص مما أكسب كلامها نمطا إيقاعيا أعفى التعبير من الرتابة من خلال الترددات الإيقاعية الواضحة، بتكرار حرفي (الطاء) و(القاف) بدلالتهما القوية قوة الفعل الذي يقوم به الزوج إن الزوجة نطقت أو سكنت (الطلاق/التعليق) فهذا الإيقاع نراه متشعبا بنغمة تنطوي على الحزن والخوف مما يكسب الكلام حجة أكبر في وصف عيوب الزوج.

وبالتركيز على الكلمات (أنطق، أطلق، أعلق) نجد أن المرأة استغلت عددا محدودا من الأصوات اللغوية (أ. ن. ط. ق. ل. ع) لتحقيق الغاية الإقناعية، فبنية التجانس لها قيمة صوتية ودلالية وكلاهما خدما المنحى الحجاجي لكلامها بإثارتها لحس المتلقي.

ز. التكرار: يعتبر التكرار أسلوبا من أساليب العرب وطريقة من طرق القول، وهو «دلالة اللفظ على المعنى مُرَدِّداً»<sup>(48)</sup>، أي أنه يُؤسَّس على ترديد اللفظ من أجل الدلالة على غرض معين، وللتكرار أهمية حسب السياق الذي يرد فيه.

ولأنَّ الرِّبَاةَ تطبع الكثير من المظاهر حولنا ويتكرَّر ظهورها دون أن نسام أو نملَّ من تكرارها، بل نجد أنفسنا نتعايش معها ونألفها، فإن التَّكرار في الكلام ليس ضربا من الملل والسَّامة أيضا، وفي هذا المعنى يقول السَّكَّاكي (ت. 626هـ/1229م): «لو كان التَّكرار يورث الكراهة لكان المألوف أكره شيء عند النَّفس»<sup>(49)</sup>.

ولقد وجدنا التكرار سمة بارزة في حديث أم زرع بقولها: «زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ (...) أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ (...) ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ (...) بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ (...) جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ».

وفي قول الزوجة العاشرة: «زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ»

يبدو أن التكرار في المقطع الأول المختار، قد وقع على اللفظ، فكان تكرار (أبو زرع) (أم أبي زرع) (ابن أبي زرع) (بنت أبي زرع) (جارية أبي زرع) وجاء بمعنى: أي شيء هو/هي؟

وذلك في معرض تأكيد المدح على معنى التعجب من جميل شمائل الممدوح أو الخير الذي هي فيه معه.

وقد تماشى هذا التكرار اللفظي مع ما كان عليه بلغاء العرب، يقول ابن رشيق صاحب العُمدَة (ت. 463هـ/1071م): «فأكثر ما يقع التَّكرار في الألفاظ دون المعاني»<sup>(50)</sup>.

فقبل أن تسرد أم زرع خصال أبي زرع افتتحت كلامها بقولها «زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ» وهذا التركيب اللفظي القصير لوحده حمل تكرار (أبو زرع) وذلك لاستمالة السامعات إليها، بحيث اختارت تكرار الاسم -الكنية- في الاستهلال، ولم يكن ذلك محض صدفة، بل هو نابع من إدراكها لضرورة دحض كل الحجج السابقة التي كَرَّسَتْها صويحباتها احتفاءً بأزواجهن أو ذما لهن، إذ عمدت أم زرع إلى تثبيت التكرار بطريقة ملفتة للانتباه و«إنما خُصِّتْ الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أَوَّلُ ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدواعي على الاستماع»<sup>(51)</sup>، وإذا توفَّر الداعي سُمِعَ المقال كله، وتكون قد نجحت في جعل خصال زوجها تتفوق على جميع خصال أزواج من تحدَّتن قبلها.

إذن، فالمدقق في كلام أم زرع يلاحظ أن الجملة التي وقع فيها التكرار حملت شحنة إقناعية عاطفية؛ تمهيدا لذكر صفات الممدوح.

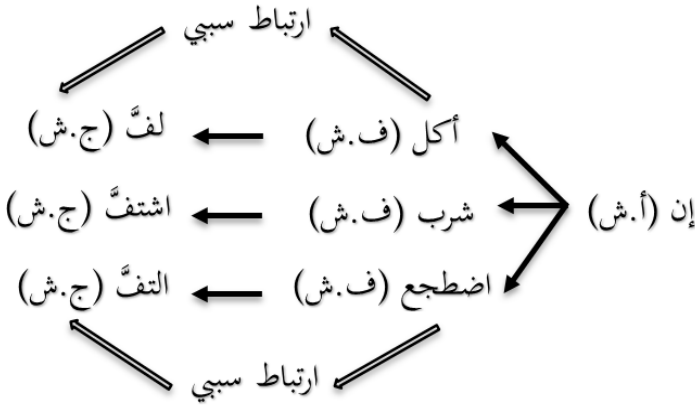
ح. الشرط: تعتبر صيغة الشرط من الصيغ التي دأب العرب على استخدامها لأغراض عدة، والشرط هو «تعلُّق شيء بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني، وقيل الشرط ما يتوقف عليه وجود الشيء يكون خارجاً عن ماهيته ولا يكون مؤثراً في وجوده وقيل الشرط ما يتوقف بثبوت الحكم عليه»<sup>(52)</sup>.

والشاهد من حديث أم زرع قول الزوجة السادسة: «زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفًّا، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ، وَلَا يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثُّ»

إن هذا الضرب من التركيب الشرطي كان بمثابة الحجج المتوالية التي أوردتها الزوجة السابعة للدلالة على سوء حال زوجها معها، والحكم هنا متعلِّق بما يتضمنه الجزء أكثر منه بما يتضمنه الشرط، فكل زوج أو رجل يأكل ويشرب ويضطجع، وليس في

ذلك حجة تأتي بها الزوجة لبيان حال زوجها، وإنما صفة هذه العمليات الحيوية هي التي تحدث الفارق!

فالشرط هنا جاء لتحديد الاحتمالات بغية الإقناع كي لا تتوسع دائرة التفكير عند المتلقي وبالتالي يتمكّن الباث أو المرسل في إقناع السامع، وهو ما نختصره عبر الخطاطة التالية:



فكون الزوج يلف إن أكل ذم له بحيث يكثر من الطعام ولا يبقى من صنوفه شيئاً، وكونه يشفّ إن شرب ذم له أيضاً بحيث يستقصي ما في الإناء حتى لا يبقى من الماء فيه شيئاً، وأنه يلتف إن هو اضطجع، ذم أقبح من سابقه، فهو لا يُعرّضه اهتماماً ويرقد دون مراعاة لها، فلا خير في رجل أكل شره مهيف يأوي لفراشه ويلقي عليه أرواقه دون أدنى نظر لمن خالصته الود وقاسمته الفراش.

ط.النفي: النفي عند أهل العربية «هو ما لا ينجزم بـ"لا"، وهو عبارة عن الإخبار عن ترك الفعل»<sup>(53)</sup>، وللنفي أدوات كثيرة، ويعد حرف (لا) أشهرها وأكثرها استعمالاً. وللقوف عند حجاجية أسلوب النفي في حديث أم زرع، نختار حديث زوجة أم زرع، حين قالت: «جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبْثِيئًا، وَلَا تُنْقِثُ مِيرَتَنَا تَنْقِثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا».

وبالرجوع للنص المستشهد به، نجد أن المرأة استعانت بأسلوب النفي لوصف جارية طليقها، مستندة على الحرف (لا) الذي دخل الأفعال المضارعة (تَبْتُ، تُنْقِثُ، تَمْلَأُ) فجاء النفي مقيّداً بفضلة في شكل مفعول مطلق.

وباستقراء عناصر السياق النصي، نلفي أم زرع وهي تحاول التأثير في صوحيباتها بتلميع صورة أبي زرع ومن والاه في أذهانهن، ولم يكن اختيار اللام عبثاً، إذ حاولت بتوظيفها التأكيد على دلالة الاستمرارية في كون صفات الجارية باقية على حالها باعتبار لام النفي هنا نفت الفعل مستقبلاً.

2. آليات الحجج اللغوية: سنتناول في هذا الجانب من البحث آليات الحجج اللغوية والمتمثلة في: السلالم الحجاجية والروابط الحجاجية.

أ. السلالم الحجاجية: *l'echelle argumentative*: تعتمد الرؤية الحجاجية على وجود مجموعة من الحجج التي تشكّل حقلاً حججياً، ويذكر ديكر *Oswald Ducrot* أن أي حقل حججيني ينطوي على علاقة ترتيبية لهذه الحجج وهذا ما يسمى بالسلم الحجاجي<sup>(54)</sup>.

إذن، فالحقل الحججيني هو عبارة عن «مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفّية بشرطين، أولها أن كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه، وثانيها أن كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه»<sup>(55)</sup>.

وعليه، فالسلم الحججيني نظام متكامل للحجج يقوم على معيار التفاوت في درجات قوة أو ضعف هذه الحجج مما ينشئ لنا تدرجاً في الاستلزمات والنتائج.

ونوضّح في الخطاطة التالية الحجج المعروضة (ح) من طرف أم زرع في الجزء الأول من حديثها، حيث ترد النتيجة في أعلى السلم، المربوطة والموصولة بالواو وكلها تدعم بعضها بعضاً للوصول إلى النتيجة الكلية (ن.ك):

(ن.ك) أبو زرع زوجي قد فاق أزواجكن جميعا في حسن العشرة

|                                                                                                       |     |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----|
| .....                                                                                                 |     |
| وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ                                                                              | ح 8 |
| وَأَزُفُّ فَأَتَصَبَّحُ                                                                               | ح 7 |
| فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُفَبِّحُ                                                                    | ح 6 |
| وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةٍ بِشَقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ | ح 5 |
| وَبَجَحَنِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي                                                                | ح 4 |
| وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ                                                                        | ح 3 |
| أَنَاكَسَ مِنْ حُلِيِّ أُذُنَيَّ                                                                      | ح 2 |
| زَوْجِي أَبُو زَرَعٍ، وَمَا أَبُو زَرَعٍ                                                              | ح 1 |

ويندرج هذا النوع من الحجاج ضمن ما يسمى بـ "الحجاج التراكمي" كون كل حجة مستقلة عن الأخرى رغم أنها جميعها موظفة لخدمة الحجة المحورية والنتيجة الكلية، وهذا تأسيسا على اتخاذ الحجاج ثلاث صور داخل السلام الحجاجي<sup>(56)</sup>؛ حجاج تصاعدي؛ وذلك بايراد الحجة الضعيفة وصولا للحجة الأقوى بهدف ترسيخ دلالة كل حجة، أو أن يكون الحجاج تنازليا؛ بايراد الحجة ابتداء من أقوى حجة ونزولا لأضعفها تبعا لشك المتلقي أو جحوده، وأخيرا أن يكون الحجاج تراكميا؛ بحيث تتعدد فيه الحجج وتتراكم دون مراعاة لمبدأ التدرج فيكون عفويا تلقائيا خادما للموقف.

ب. الروابط الحجاجية: يقوم اتساق النص على مجموعة من الروابط «تربط بين قولين أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر) وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة»<sup>(57)</sup>، والتي تسمى بـ (الروابط الحجاجية).

ويميز الدارسون للحجاج بين أنماط مختلفة من الروابط<sup>(58)</sup> لا تخرج عن:

✓ الروابط المدرجة للحجج الضعيفة

✓ روابط التعارض الحجاجي

✓ روابط التساوق الحجاجي

## بنية الملفوظ الحجاجي لحديث أم زرع

وكمرحلة ثانية نقوم برصد أدوات العطف في حديث أم زرع ككل، لنقف عند مقطع مختار، وقد ألفينا حضور كل من الواو والفاء للعطف<sup>(59)</sup>:

| أدوات العطف في حديث أم زرع | تكرارها |
|----------------------------|---------|
| الواو                      | 21      |
| الفاء                      | 12      |

إن توظيف حرف العطف (الواو) وحرف (الفاء) وجدناه توظيفا خادما للاستراتيجية الحجاجية التي ينبنى عليها القول، إذ نجد الحرفان كرابطين حجاجيين يعملان على ترتيب الحجج وبسطها متتابعة بغية التأثير في السامع، إذ سعت أم زرع لبيان الخصال الحميدة لأبي زرع، ففي قولها مثلا: «زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ، أَنَسَ مِنْ حُلِيِّ أُذُنِي، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضُدَيَّ» نراها تريد إقناع بقية النسوة بأن زوجها طلق اليدين جزيل الصلات عليها والرابط (الواو) ربط بين الحجيتين لخدمة التسلسل المرجو وتحقيق مقصد التواصل في الإقناع بكرم الزوج، ونلاحظ كيف أن السياق الخطابي لا يستقيم دون الواو التي ربطت المعنى السابق بالمعنى اللاحق كما أشرنا إليه.

وتتابع أم زرع قولها: «(...) وَبَجَحَنِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشَقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَذَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّنَحُ» نجد أم زرع قد استعانت بـ (الفاء) لإدراج النتائج وعرضها، وعليه فالواو ربط بين الحجج لنتيجة واحدة شاملة، وحرف الفاء جاء لإدراج النتائج الجزئية، وحينما نربط هذه الأحرف بسياقاتها الخطابية، ومقاصدها الحجاجية نجد أنها ضرورية ولا يستقيم المعنى دونها.

وأخيرا أقول: كانت هذه مقارنة لنص حديث نبوي باتباع المنهج الحجاجي، وقفنا خلالها على بنية الملفوظ في ثنانيا الحديث، ووجدنا أوجه حجاجية مختلفة ما بين آليات بلاغية وأخرى لغوية، وقد بذلنا جهدا لإخراج هذه الأسطر على وجه يُرضي القارئ ويُفيد

طالب المنفعة، وفي بالي أنه «لو عُورِضَ الكتاب مائة مرّة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سَقَطٌ»<sup>(60)</sup> فحنانيكم على كاتبته!

فإن وُقِّتُ في عرضه، ففضل من الله ونعمة، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وإن أخطأتُ فحسبي أَنِّي أخلصْتُ النِّيَّةَ، وكذلك أَحسبُ نفسي، والله من وراء القصد وهو يهدي إلى السبيل القويم، أسأل الله أن يرزقنا علما نافعا وقلبا خاشعا، ويوفّقنا لشكر أنعمه، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

(<sup>1</sup>) أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور، بلاغات النساء، مطبعة مدرسة والدّة عباس الأول، القاهرة، 1326هـ/ 1908م، 79-86.

(<sup>2</sup>) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، رقم الحديث: 5189، ص: 27/7، وصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: ذكر حديث أم زرع، رقم الحديث: 2448، 1896/4.

(<sup>3</sup>) المراد بها العيوب كلها، الباطنية والداخلية.

(<sup>4</sup>) الطويل.

(<sup>5</sup>) اللف في الأكل الإكثار منه.

(<sup>6</sup>) استقصاء ما في الإناء.

(<sup>7</sup>) الذي تعييه مباضعة النساء.

(<sup>8</sup>) هو الذي تنطبق عليه الأمور فلا يمتدي لوجهها.

(<sup>9</sup>) الضرب والجرح وكسر الأعضاء.

(<sup>10</sup>) ضرب من الطيب.

(<sup>11</sup>) اسم مكان/ بشظف من العيش.

(<sup>12</sup>) صوت الرجل الجديد.

(<sup>13</sup>) الذي يدوس الطعام.

(<sup>14</sup>) من ينقي الطعام.

(<sup>15</sup>) أروى حتى لا أحب الشرب.

(<sup>16</sup>) الأحمال التي تجمع الأطعمة والمتاع.

(<sup>17</sup>) الطعام كثير الحشو.

(<sup>18</sup>) ما شطب من جريد النخل وهو سعفه.

(<sup>19</sup>) الأنثى من أولاد الماعز.

- (20) الإسراع في السير/النقل.
- (21) ما يمتاره البدوي من الحضر من دقيق.
- (22) تحتص بأسقية اللبن.
- (23) سيدا شريفا.
- (24) الفرس الفائق الخيار.
- (25) الرمح.
- (26) مما يروح من الإبل والبقر والغنم والعبيد.
- (27) أشهرهم على التوالي: أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: 224هـ) في غريب الحديث، الخطابي (ت: 388هـ) في شرح البخاري، الزمخشري (ت: 538هـ) الفائق في غريب الحديث، القاضي عياض (ت: 544هـ) في بغية الرائد لما تضمنه حديث زرع من فوائد، محمد بن عبد الكريم القزويني (ت: 580 هـ) في درة الضرع لحديث أم زرع 27/7.
- (28) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1423هـ، 20/3.
- (29) حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)، عالم الفكر، الكويت، العدد: 99، 01.
- (30) يقول تمام حسان: «أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عم أفهمه من المصطلح الحديث سياق الحال (context of situation) الذي يستعمله اللسانيون المحدثون» ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط3، عالم الكتب، 1998م، 339.
- (31) عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ، 132/1.
- (32) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، 131/1.
- (33) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ - 2004م، 99/3.
- (34) المرجع السابق، 99/3.
- (35) محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد: 05، ديسمبر 1991م، المغرب، 11.
- (36) المرجع السابق، 07.
- (37) سامية الدريدي الحسني، دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، ط1، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العلمي، الأردن، 2009م، 95.
- (38) ابن قتيبة الدينوري، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1302هـ، 37.
- (39) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، لبنان، 1419هـ، 268.
- (40) أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ط1، الأحمديّة للنشر، المغرب، 2007، 46.
- (41) ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر (مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج) الدار البيضاء، المغرب، 2006م، 121.

- (42) أبو هلال العسكري، الصناعتين، 368.
- (43) الرماني والخطابي والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر، 1976م، 80.
- (44) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، 13/2.
- (45) المرجع السابق، 20/3.
- (46) شرف الدين الطيبي، التبيان في البيان، تحقيق: توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ط1، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، 1406هـ/ 1986م، 284.
- (47) أبو هلال العسكري، الصناعتين، 321.
- (48) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1420هـ، 146/2.
- (49) السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407 هـ / 1987 م، 350-351.
- (50) ابن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، 73/2.
- (51) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، 98/3.
- (52) علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، 108.
- (53) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، 205، 206.
- (54) Oswald Ducrot, Les Échelles argumentatives, Collection Propositions, 1980, 17.
- (55) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1988، 277.
- (56) عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 2015م، 371.
- (57) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، 2009م، 27.
- (58) المرجع السابق، 30.
- (59) ينظر: عبد الرحمن الزجاجي، حروف المعاني والصفات، تحقيق: علي توفيق الحمد، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1984م، 36-39.
- (60) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، بيروت، دار المعرفة، 1414هـ، 338/1.

